د.عبدالناصر عيسوى

في ديوانه «وجوه فى الميدان»..

حسن فتح الباب صوت شعري معروف في مصر والوطن العربي منذ منتصف القرن العشرين، وقد التحق بالموجة الثانية لشعراء التفعيلة الذين أكدوا استمرار الشكل التفعيلي الجديد، منذ أن نشر أولى قصائده التفعيلية «غريب في القرية» في سبتمبر عام ١٩٥٧، بمجلة الآداب البيروتية، التي أعاد نشرها في ديوانه «فارس الأمل» بعنوان «ضابط في القرية»، فقد كان بالفعل ضابط شرطة حتى خرج على المعاش برتبة لواء، وكان قد حصل على الماجستير في العلوم السياسية والدكتوراه في القانون، في أثناء الخدمة، وكان آخر منصب له هو مدير القضاء العسكري بجهاز الشرطة، وهو ما يجعلنا ننظر إليه بوصفه حقوقيا أكثر منه ضابط شرطة.

حسن فتح الباب.. ثائر فوق الثمانين

ظل الشاعر حسن فتح الباب مدافعًا عن القومية العربية، ومهتما بشباب الأمة العربية وبثوراتها، وارتبط اسمه بشعر المقاومة، فكان من الطبيعي أن نجد هذا الثائر القديم المولود عام ١٩٢٢، يحتفي بشباب مصر المفجّر للثورة في ميدان التحرير وفي كل الميادين، فيقدم ديوانه «وجوه في الميدان»، الذي صدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة ضمن «إبداعات الثورة»، وجاء ديوانه بالفعل خالصًا لثورة يناير، وفيه قصيدة واحدة عن الثورة التونسية، فقد تناولت قصائده بشائر الثورة، ثم شرارتها في ميدان التحرير، الذي هو رمز الثورة المصرية، الذي يعبِّر به عن كل ميادين مصر التي خرج فيها الشعب المصري، وتناولت قصائده معظم أحداث الثورة السلمية التي قوبلت بالقتل وبقنص العيون، وبالاتهامات الكاذبة من نظام يقوده فرعون، ولم يترك الشاعر رمزًا من رموز الثورة دون أن يذكره، فنجد خالد سعيد، أو وائل غنيم، أو المستشفيات الميدانية بمن فيها من أطباء، حتى الفلول الذين سماهم «خفافيش الظلام» بأفاعيلهم وثورتهم المضادة، فجاء ديوانه ليدوّن أحداث الجولة الأولى من الثورة المصرية بتفاصيلها.

ولا أعتقد أننا ننتظر من هذا الشاعر الكبير أن يثور وهو يقترب من التسعين من العمر، كما لا أعتقد أننا نهتم بالموضوعات من خارج النصوص الشعرية إلا بقدر ما يعمّق فهمها، أو يفك مغزاها في شعر شيخ الثائرين، فهو يعترف بأن الفرق بينه وبين الشباب لم يكن مجرد اختلاف في السن، فالشباب الذين قاموا بالثورة، يمتلكون الإرادة، بل إن الشاعر يتمنى لو عاد إليه الشباب ليكون بينهم، فيقول في قصيدته «اعتراف»:

«نحن الشيوخَ الناقمينَ، كالشبابُ/لكننا لم نمتلكْ ما امتلكوا

إرادة الصمودْ/شجاعة المواجهة

وكان منا مَن أرادوا مغنمًا/كأنهم ثعالبٌ صفراءْ

عرفتهم لكنني لم أعترفْ بهمْ/أولئك المنافقينَ واحدًا فواحدا

لو عاد بي الزمَنْ/إلى ربيعي مثل آلاف الشباب الثائرينْ

لكنتُ بينهمْ

لكنني اليوم الشتاء/فكيف لي أن أنطلق

إلى (محطة التحرير)/لأطرُدَ الأشباحْ

وأسقطَ الوثنْ/أدفنه بلا كفنْ/أحرِّرَ الوطنْ».

والشاعر واحد ممن ظهر لديهم الإرادة الشعبية للتغيير، حيث يتضح وقود الثورة جليًا في قصيدة له بعنوان «الغضب»، في الجزء الأخير من الديوان بعنوان (نذر وبشائر ٢٥ يناير)، يقول في مطلعها:

«نموتُ لو مات الغضبْ

في صدْرنا.. ولم ترَ العُيونُ/غدْرَ من بغَى ومن طغى

نموتُ لو أطفئتْ/في أفقنا شموسُنا.. شموعُنا

ودبَّ في ضلوعنا الوَهَنْ/وانكسرتْ دروعُنا

وحين أبحرنا هوَى شراعُنا/ولم نعُدْ نملك غيرَ دمعنا

والكهف والكفنْ/لكننا غدًا ستفتدي

أحبابنا الأحياءَ والذين بعدنا

ونهتدي بسَوْرة الغضبْ».

ولأنها كانت ثورة كاملة على الظلم والطغيان، كان إيمان أمهات الشهداء بها، وكان إيمانهن بأن أبناءهن استشهدوا في سبيل قضية عادلة، هي قضية تحرير شعب من الظلم والاستبداد، ومن الخداع المستمر، وإمعانًا في الصدق الفني استخدم الشاعر بعض كلمات أمهات الشهداء، في قصيدته «نم يا حبيبي نم»، فقال في ختامها:

«وحين تجلَّتْ إشاراتُ/نصر شباب يناير

لم تبك أمُّ الشهيد الذي/سوف ينضم للثائرينَ

وقالت له: لا تعُدْ/بغير ثياب عروسك مصرَ

وما المهرُ إلا الشهادةُ/أو الانتصارْ

ألا يا ضنايَ وقرَّة عيني/بُنيَّ الحبيب

لقد عُدتَ حيًا وإن كنتَ/في كفنٍ نسجته الملائكُ

قُرْبى إلى الشهداء/نم يا حبيبي بحضني طيقًا

يُقبِّلُ مني الجبينَ/أقبِّله قبلة النصر للوطن المفتدَى».

ولم يترك الشاعر من أسماهم «خفافيش الظلام» في قصيدة يحمل عنوانها هذا الاسم الذي سماهم به الشاعر:

«خفافيشُ كامنةٌ في الظلام/وراصدةٌ خطو ثوارنا

لتقطفَ وردةَ أحلامنا/وتسحقها تحت أقدامها

لقد فُجِّرتْ ثورةُ الشعبِ مُذْ قادَها/شبابٌ كوَرْدٍ تألق فوق الغُصون

وشاعَ فعطَّرَ كل الفصول/وكل الدروب وكل القلوبْ

فلا تأمنوا جائحة/تُدمِّر ما قد بنى

وجاد به الشهداءُ

/خفافيش كامنة في الظلام

فقصُّوا لها الأجنحةْ».

ومن أشدِّ مظاهر الثورة تأثيرًا في القلوب، مشهد الذين فقئت أعينهم برصاص القناصة، مع أنهم خرجوا مسالمين، ومطالبين بحقوق الشعب، بلا عدوانية، فقوبلت ثورتهم بكل صنوف القتل والتنكيل والعدوانية، من نظام قمعي تعوَّد على الطغيان، فأجاد الشاعر تصوير الحوار بين المتظاهر المسالم وقناص العيون، في قصيدته «الفتى ذو الضمادة البيضاء»، وفيها يقول:

«وفجأةً رأيتُني وجهًا لوَجْه

أمام جُنديٍّ كأنه شبَحْ

أسودَ فاحم كأسفلت الطريقْ

سدد بندقيته

رفعتُ ساعديَّ قلتُ له:

أنا أكنُّ الحبَّ لكْ

من أجلك انتفضت

لكي تكونَ سيدًا في وطنكْ

ولستَ عبدًا للطغاة

أعداء مصرنا

لم يُصْغِ لي.. وقال:

لن أخذلكْ

لن أقتلكْ

لكنْ رصاصة من المطاط

من مدفعي الرشاش

في عينك اليُسْرى فقط

لكي تراني عينك الثانية

فقلتُ له:

يا صاحبي.. ما أشجعكْ

ما أروعكْ

ما أرحمكْ

وهكذا قص على مسمعي

هذا الفتى الجميلُ ذو الضمادة البيضاءْ

حكايتهْ

وعاد للميدانْ

يضم قلبه الجموعْ

مدثَّرًا براية خضراء

في ساحة التحريرْ

وساعة الخلاصْ

يهتفُ: عشتِ مصرْ».